والخلاصة أن الأصل اعتماد المصطلح القرآني على غيره عملاً بالنص القرآني الذي هو دليل على وجوب تقديمه على غيره وعدم العدول عنه، وخاصة المصطلحات الشرعية التي لا يجوز العدول عنها بأخرى محدثة لا تدل على مفهومها دلالة دقيقة، فلا يجوز مصطلح القانون مثلاً أن يحل محل مصطلح الشريعة في الأحكام الشرعية، فالأول أحكام وضعية، والأخير مصطلح توقيفي خصيصَى الشرع الإلهي، ومصطلح اللسان يقاس عليه، وما لمؤمن ولا مؤمنة أن يعدل عما جاء في كتاب الله تعالى، وهو لفظ اللساني، ولم ينصرف عنه إلا المتأخرون في عصرنا، مثلما عدلوا عن المصطلحات الإسلامية والتراثية[1]، ومصطلح اللساني يدخل في نوع المصطلح القرآني التراثي، بينما مصطلح علم اللغة تراثي، وما دونهما مما تقدمت مصطلحات محدثة.

ويقابل مصطلح علم اللسان في اللغات الأجنبية: (Linguistics) الإنجليزي، ويعنى: علم اللسان، و(Lingustique) الفرنسى، ويعني: اللسانية، والاسم: (Language) اللسان أو اللغة، وهو من اللاتينية (lingua) التي تعني الكلام والخطاب، أما الكلمة اليونانية (logos)، فلهامعانٍ متعددة كاللسان والكلام والخطاب والعقل، ويفهم معناها من خلال السياق الذي وردت فيه، ومن غرائب ما قرأته في كتب بعض الباحثين أن ردوا لفظ اللغة العربي إلى اللفظ اليوناني (logos)[2]، وقد زعموا أنه دخل في العربية دون دليل غير المشابهة اللفظية، والمعلوم يقينًا أن مادة «لغو»

(١) المصطلحات الإسلامية التي عدلوا عنها في عصرنا: الجهاد والجهادية وناظر الجهادية، فقالوا المقاومة والحرب و الجيش ووالجندية وزير الحربية والحرب والمقاوم والفدائي والمقاتل، وعدلوا عن الاستشهاد إلى القتل والفدائية والانتحار.

(٢) كلمة (Logos) في اليونانية تعني كلمة، ثم أخذت مفهومًا اصطلاحيًا هو: ما وراء الكلمة من عملية عقلية، ثم دلت على ارتباط الكلمة بكلمة أخرى؛ لتكون قضية أو حكمًا، ثم دلت على الاستدلال على الأحكام والبرهنة عليها وارتباطها ارتباطًا عقليًا بعضها، واستقرت في الدلالة على العقل أو الفكر أو البرهان أو القانون أو اللغة أو الناموس، واشتقت منها كلمة (Logic) الإنجليزية، و(Logique) الفرنسية، وكلمة المنطق (Logike) الذي انتقل إلى بعض العلوم باعتبار المنطق علم كل العلوم وباعتبار عناصره ومبادئه التي تطبق في العلوم، فدخل في تركيب بعضها، نحو البيولوجي: (Biology) المنطق الذي يبحث في ظاهرة الحياة.

أصيلة في العربية، وكانت تطلق على الصوت المبهم مثل منطق الطير والطفل، ثم اللغو عبثًا، بينما ارتبط اللفظ في اليونانية بعصمة العقل من الخطأ، وقد ترجمه المسلمون علم الحكمة وتمام الفضيلة دون أن يربطوه باللغة، وقد عوض عن الواو المحذوفة بتاء العوض في آخره، وهذا يجري في اللفظ العربي مثل: كُرة، ومثل عوض فاء «هبة» وعين «إقالة»(١).

والمصطلح الذي وضعه الغربيون لهذا العلم هو (linguistics)، وصفوه بالعمومية: (generallinguistics)، وقد ترجمه الباحثون العرب الأول بعلم اللغة واللغويات، وعلم اللسان، واللسانيات، واللسنيات، والألسنية والألسنيات وعلم الألسن، وترجموا الأخير بعلم اللغة العام وعلم اللسان العام واللسانيات العامة والألسنية العامة، وقد استخدم بعض الباحثين علم اللغة ترجمة لمصطلح دي سوسير اللسان العام البشري مصطلح علم اللغة، واستخدموا للغة القومية أو الشعبية مصطلح اللسان، واستخدموا اللغوة والكلام لأسلوب الفرد في الخطاب، وهي تسميات عن غير دليل.

والفرق بين مصطلحي علم اللسان وفقه اللغة أن الأخير فرع من فروع علم اللسان، ويراد به النظر في مسائل اللغة الدقيقة واستنباط أحكامها واكتشاف أسرارها وفك معقودها وألغازها، وقد استخدمه بعض الأوائل في حديثهم عن أصول اللغة وقضايا اللسان التي تعتمد على الفهم والفطنة لأسرار اللغة ودقة التعبير، واستخدمه المعاصرون مقابل الفونولوجي المستخدم في اللغات القديمة ورموز الحفريات الأثرية.

ثانيًا: اللسان وعلمه وموضوعه ونشأته ومباحثه وفروعه ومناهجه:

١- تعريف اللسان ووظيفته، وعلم اللسان وموضوعه:

- **اللسان:** ما يلفظ به المتكلم من قول مفيد تعبيرًا عن غرضه، وابن جني -رحمه الله- صاحب أول تعريف علمي عالمي في اللغة، قال: «حد اللغة أصوات يعبر بها

(١) تناولت هذا مفصلاً في كتابي علم الصرف الميسر والتطور الصوتي.

كل قوم عن أغراضهم»[1]، وهو أجمع التعريفات لفظًا وأدقها في المفهوم؛ لذكره طبيعة اللغة الصوتية المنطوقة ووظيفتها في دلالتها على المعنى المعبر عن قصد المتكلم في التواصل[2]، وأنها شقان: شق حسي متمثل في الأصوات وآخر معنوي، وأنها تختلف باختلاف الأمم، وأن معاني الألفاظ غير القصد من القوم، فالقصد يفهم من المعنى استنباطًا مقرونًا بقرينة تعيِّنه، وأن الأصل في اللغة الأصوات المنطوقة المؤلفة لألفاظها، وأن الألفاظ أوعية معانيها وخدمها، وأن الكتابة رموز حرفية لها، وأنها نتاج اجتماعي، وأن وظيفتها التواصل الاجتماعي، وأنها تختلف باختلاف المجتمع الذي أنتجها، فاللغة ظاهرة صوتية اجتماعية قابلة للتغيير، ووظيفتها الفردية التعبير عن قصد متكلمها، ووظيفتها الاجتماعية التواصل، وهي ترتقي بتطور المجتمع وتنحدر بانحداره، وتختلف باختلافه، فلكل مجتمع لغته الخاصة التي تمثله.

وهي إنتاج بشري بالمواضعة البشرية، قال ابن سنان الخفاجي في كتابه (سر الفصاحة): «اللغة هي ما يتواضع القوم عليه من الكلام»[3]، وهذا رأي جمهرة الأوائل، وهذا لا ينفي خصوصية تعلم آدم -عليه السلام- بالوحي ابتداء، بيد أن ما جرى عليه المجتمع التواضع على التسمية.

وظائف اللسان[4]:

- أنه وسيلة التعبير عن قصد المتكلم.

(١) الخصائص لابن جني، جـ١/ ٣٣.

(٢) بعض الباحثين يستخدم الاتصال، وهو هنا من طرف واحد، ولكن الصواب «التواصل» لدلالته على التفاعل الاجتماعي باللغة، وقولهم المرسل والمصدر والمستقبل أو المتلقي والوسيط غير دقيقة أيضًا في التواصل، والصواب المتكلم والكاتب، والمستمع والقارئ، ووسيلة التواصل الكلام أو الكتابة(الوسيط).

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، جـ١/ ٤٧ وقد ناقش قضية وضع اللغة أو مصدر اللغة، ورأى أنه وضع أو اصطلاح، وليست توقيفًا، ص٤، ولقد رأى رائد علم اللسان الغربي دي سوسير١٩١٣(م) أن اللغة نظام ذهني يربط بين العناصر اللغويةعلى المستوى الفونولوجي (الصوتي عنده) والصرفي والنحوي.

(٤) يعد دي سوسير(١٩١٣م) رائد اللسانيات الغربية الحديثة، ولكنه تأثر بالفلسفة المادية البنوية، ويرجع مصطلح علم اللغة العام إلى المحاضرات التي ألقاها قبيل موته، والتي تناول فيها طبيعة اللغة ووظيفتها، وتحدث عن «علم اللغة الوصفى» أو «التزامنى» الذي نسب إليه، و تناول «علم اللغة التاريخى» و«علم اللغة الجغرافى»، وبعض القضايا التي تربط اللغة بالعلوم الإنسانية. =

- أنه وسيلة التواصل الاجتماعي.

- أنه وسيلة نقل الأفكار والتعبير عن الحضارة.

- أنه السجل لرصيد العقل الإنساني، والصورة المادية لأفكاره وخواطره ومشاعره.

ب - علم اللسان وموضوع بحثه:

- علم اللسان: علم دراسة اللسان البشري دراسة علمية بمقتضى ضوابط البحث المنهجية فيه.

وقيل: علم اللغة: العلم الذي يبحث في اللغة، ويتخذها موضوعًا له، فيدرسها من النواحي الوصفية، والتاريخية، والمقارنة، كما يدرس العلاقات الكائنة بين اللغات المختلفة، أو بين مجموعة من هذه اللغات، ويدرس وظائف اللغة وأساليبها المتعددة، وعلاقتها بالمجتمعات المختلفة، ودراسة اللغة على نحو علمي.

- موضوع علم اللسان: اللغة البشرية وفروعها ولهجاتها.

ج- نشأة اللسان الأولى:

اللسان ظاهرة إنسانية صوتية مشفرة في العقل برموز، وحاضرة في الأعيان صوتًا أو كتابة، أو هي ملكة إنسانية وهبها الله تعالى الإنسان، وهيَّأه لنطقها من مخارجها أو بآلتها والتصرف فيها دون غيره من الحيوان المجبول على أصوات نمطية محدودة لا يحسن غيرها؛ لتكون دليل عقله ومادة فكره؛ وفي العقل شفرتها الذهنية.

= ولقد اهتم بعض الغربيين بنظرية اللغة ومناهج التحليل اللغوي، وأبرزهم بلومفيلد (Bloomfield) وجليسون (Gleason) وهوكيت (Hockett)، ومارتينيه (Martinet)، وجاكوبسون (Jacobson)، وتشومسكي(Chomsky)، وروبينز (Robins)، وليونز (Lyons)، وقد جمعت بينهم فكرة أساسية أن اللغة ظاهرة إنسانية عامة يشترك فيها كل البشر، وأنها تتألف من أصوات تصدر من أعضاء النطق، وأنها مشتركة بين كل البشر، وأن الأصوات تؤلف الكلمات التي تدخل في أنساق تركيبية تعرف بالجمل. وهدف علم اللغة العام أن يطور النظرية العامة للغة والوسائل الدقيقة لتحليل الأصوات والكلمات والجمل والدلالة. ويهتم أيضًا بتبيين العلاقة بين علم اللغة والعلوم الإنسانية الأخرى.

والمعلوم يقينًا أن الله تعالى وهب الإنسان ملكة لسانية تعبيرية، وأنه صاحب جهاز صوتي مميز يستطيع أن ينطق عددًا كثيرًا من الأصوات، وأنه يستطيع أن ينوع فيها ويغير بإمكاناته العضوية وقدرته الذهنية، والمعلوم أيضًا أن آدم -عليه السلام- أول من تكلم اللسان البشرية، وأنه اكتسبها تعلمًا نصًا قال تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾ [البقرة: ٣١]، ولكن لا دليل نصي نعرف به اللسان التي تكلمها آدم، ولا شك أنها ليست واحدة من الألسن التي نعرفها الآن، وأنها تختلف عنها، وأن كل الألسنة التي قيل إنها لسان آدم الأولى لا دليل عليها غير الظن والتعصب، والباحث في هذا الموضوع لا يرجع فيه بعلم لعدم وجود أدلة قطعية، والأخبار المروية فيه لا أصل لها، والمعلوم أيضًا أن اللسان الأولى اختلفت بعد فترة طويلة لأسباب تتعلق بتطور المجتمع البشري وانتشاره وتأثره بمحيطه، ولا دليل ثابت أن اللسان الأولى اختلفت بعد حادثة الطوفان، وأن الأمم أجمعت لاختيار ألسنتها في بابل بالعراق، فهذا من الأساطير التي نسجها الخيال العاجز، فقد بين العلماء أسباب ظهور اللهجات في اللسان الواحدة، ثم انشقاقها عنها ومفارقتها على المستوى الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي، وأن الألسن التي خرجت من رحم لسان واحدة احتفظت ببعض الخصائص التي تؤكد القرابة بينها، وأن البشر جميعهم يتفقون في القدرة اللسانية، وأن اللسان آلة تعبيرية يقودها العقل.

نظريات أصل اللسان الأولى: لقد اجتهد بعض العلماء في تحديد أصلها أو مصدرها ومادتها الأولى، وقد سماه المتأخرون «نظريات نشأة اللسان»، وهي آراءبعضها ضرب من الظن، وأذكر أشهرها اختصاراً وموجزًا:

- أنها توقيف من عند الله تعالى، وهذا عندي ليس مطلقًا، فهو يصح فيما علمه الله تعالى آدم، وفيما جعله الله تعالى وقفًا على مراده من ألفاظ الدين ومفاهيم الاعتقاد، كمفهوم الإسلام والإيمان والحج والزكاة والجهاد، وعامة الألفاظ الإسلامية التي عرف مرادها وحيًا دون ما يستخدمها بها الناس، وهذا لم أقرأه في كتب الأوائل، بل ما فتح الله تعالى عليّ به وما حصلته من كتب الإسلام وما جاء في كتب اللغة عما يسمى بـ«الألفاظ الإسلامية» التي جاء تعريفها في القرآن الكريم أو عرفها النبي ﷺ،

فهي لا شك توقيفية من عند الله إضافة إلى ما علمه آدم -عليه السلام-، وما لم يأت وحيًا، فهو ما اجتهد في وضعه البشر في أزمانهم، وهو أكثر من المتقدم التوقيفي.

- أنها اصطلاح أو تواضع بشري، وهذا الصواب فيما ليست دلالته وحيًا من عند الله تعالى، فالبشر هم الذين وضعوا الأسماء لذوات عينية، ثم توسعوا فيها، فجعلوها لمعان نفسية، ثم اشتقوا معاني أحداثها (الأفعال)، وهذا عبر تاريخ طويل، يستطيع الباحث معرفته من رصده معاني الألفاظ تاريخيًا، ولو استطاع الباحث في العرب الوصول إلى أقدم استعمال للفظ في العربية، لوجده دالاً على عين في الطبيعة، وأن المعاني النفسية لاحقة عليه وبسبب منه.

وأدل دليل على ابتكار الإنسان اللغة للتعبير عن ضروراته اختلاف الألسنة واللهجات في لسان واحد، وما نبتكره في عصرنا توليدًا أو اختراعًا للترميز إلى المستحدثات. وهذان الرأيان هما أرجح ما قيل في نشأة اللسان، وقد جمع بعض العلماء بينما أي: «اللسان توقيف وتواضع»، وتفسيرهم لهما على نحو ما ذكرت لك أن الله تعالى علم آدم -عليه السلام- وحيًا كلماته التي تكلمها، فهو لا شك تواصل مع بنيه لغة، وأن بني آدم استحدثوا ألفاظًا أخرى تلبية لحاجاتهم وتطورهم واختلافهم، وليس معقولاً ما ذكرته الخرافات القديمة والخرافات الفلسفية التي سماها المتأخرون نظريات، والحكايات التمثيلية أنه كان يهيم مثل الحيوان في الأرض، فهذا لا يليق بنبي، عزا الله تعالى له خطابًا، وجعل له أعضاء كلامية تكلم بها وتصرف في كلامه، ووهبه قدرات صوتية وعقلية ليست لغيره من الخلق.

وقيل: الأصوات محاكاة صوتية لبعض ما يسمعه الإنسان، والمحاكاة نفسها اصطلاح بشري بحت بيد أنها محدودة جدًا في بعض الأصوات التي يمكن جمعها في كل لغة منفردة، فاللغات لم تجمع عليها، ولو صح تعميمها؛ لنطق الإنسان أصواتًا متماثلة في كل العالم مثل الفصائل الحيوانية، والأصوات التي حاكت المسموع لا تماثله، بل وقعها فيها تغيير.

وقد رأى بعض الباحثين أن اللسان وجد لأسباب اجتماعية أو نفسية، والمعلوم أن

اللسان وجد لوظيفة التواصل الاجتماعي، وأن المجتمع الذي يستحدث الألفاظ ويتصرف فيها، وهذا يدخل في الاصطلاح أو المواضعة التي تقدم ذكرها.

وقولهم اللسان نشأ لأسباب نفسية استجابة للمثير، وقد ربطوا المثير بعامل خارجي (عند بلومفيلد). والصواب أن الإنسان يتكلم بدوافع نفسية أو لأغراض دفعته للكلام، فالغرض النفسي حافر إنتاج الكلام المخزن شفرة في الذهن، ويتأثر المتكلم برصيده اللساني حال التعبير.

وقد ضرب بعض اللسانيين النفسيين أمثلة لعلاقة الكلام بالدوافع النفسية، وما قالوه لا يتعلق بنشأة اللسان أو ابتكاره، بل يتعلق بدوافع الكلام، فالكلام موجود قبل المثير النفسي الذي عبر عنه المتكلم، وقد يعبر عنه بوسيلة أخرى غير اللغة (الإشارة والحركة والرمز).

وما جاء في العهد القديم من ذكر أسباب نزع الكلام من الحيوان واختلاف الألسنة في بابل بعد طوفان نوح -عليه السلام-، وتوزيع الألسنة على الأمم، واختيار كل أمة لسانها مما توهمه الإنسان الأول عما يجهله، ولا يتسق معطيات العلم اللساني الذي توصل إلى عوامل اختلاف الألسنة وتطورها وانحدارها، والاختلاف شأن كل الألسنة في مرحلة الشفوية، والتدوين أو الكتابة ووسائل الإعلام حديثًا، لم يمنعا من حدوث التغيير في اللسان، ونحن ـ العرب ـ زدنا في ألفاظ العربية ألفاظًا غيرَ ما جاء في القرآن الكريم وما جاء في خطاب العرب الأقحاح في فترة لا تتجاوز ألفًا وخمسمائة، ولو سمعنا رجل منهم لما عرف معظم خطابنا اليوم؛ لكثرة ما أحدثناه فيها.

د ـ نشأة البحث اللساني:

لقد بدأ البحث اللساني عند الهنود قبل الميلاد(٨ ق م: ١٥٠ ق م)، فبحثوا قضية نشأة اللغة، ورأى بعضهم أنها من المحاكاة الطبيعية، ورأى آخرون أنها بالمواضعة أو العلاقة العرفية ومبدأ التواضع الاجتماعي، وأنها العلاقة النموذجية في ظهور اللغة وتطورها؛ لأن العلاقة بين اللفظ ومعناه اعتباط (دون علة طبيعية)، وبحثوا دلالة اللغة عن المعاني الكثيرة، وتناولوا تعدد معاني الكلمة من تعدد السياقات التي ترد فيها، وناقشوا الفرق

بين الحقيقة والمجاز وحدود كل منهما في اللغة، وناقشوا منزلة الكلمة في مقابل منزلة الجملة وارتباطهما بالمعني، فذهب بعضهم إلى أن الكلمة أصغر وحدة دالة في اللغة، وذهب آخرون ـ في مقدمتهم اللغوي «بهاتر هاري» مؤلف «الفاكيابيديا» ـ إلى أن الجملة الوحدة الدلالية الدنيا في اللغة باعتبارها قولاً غير قابل التجزئة، فلا تفهم كلماتها منفصلة عنها، بل تفهم متضامة مركبة بمقتضى العلاقات النحوية[1].

وناقش الهنود الفروق الكائنة بين اللغة والكلام في نظرية «السبهوطا»، وميزوا فيها بين ما هو حدث فعلي وما هو ظاهرة فردية وبين ما هو مطرد دائم غير متجسد.

ولم يتوسع الهنود في دراسة المعنى؛ لأن السنسكريتية لغة دينية خاصة وليست لغة شعبية، ولم تظهر مشكلات المعنى في هذه الفترة، ومن ثم انشغلوا بنطقها وقراءتها أكثر من فهمها؛ ليتمكنوا من ممارسة الطقوس الدينية، وقد قام بعض الهنود بشرح الكلمات الصعبة في الكتاب المقدس «الفيدا» في العصور المتأخرة في هيئة معجم عرف بـ «الأماراكوزا»، وقد قيل إن نشأة المعجم العربي تأثرت بالمعجم الهندي، ولا دليل يؤكد هذا، فقد مر المعجم العربي بمراحل تطورها فيها، الأولى شح غريب القرآن الكريم، والثانية جمع المادة اللغوية تحت أسماء جامعة (تشبه الحقل اللغوي عند الغربيين بيد أنها أوسع وأدق، وغرضها المعنى لا الإحصاء)، ثم ألهم الخليل بن أحمد فكرة ترتيب المعجم الجامع بعد أن تمكن من اكتشاف مخارج الأصوات والأوزان العروضية، وهي المرحلة الثالثة والأخيرة التي انطلق منها علم المعجم ومدارسه.

وقد ناقش بعض الهنود العلاقة بين اللفظ والمعنى، ورأى بعضهم وجوب الفصل بينهما على طرفي نقيض، ورأى آخرون ضرورة المطابقة وعدم الفصل، وأنهما وجهان لحقيقة واحدة، فأحدهما ضروري للآخر، وهي الفكرة التي تبناها دي سوسير وتلامذته حديثًا، وهنالك آخرون تبنوا المحاكاة الصوتية والرمزية اللغوية للتأكيد الشديد على الطبيعة الفطرية للغة في مقابل القائلين بعرفيتها وخضوعها لمبدأ المواضعة

(١) ارجع إلى: موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، روبنز، ص٢٣١، والبحث اللغوي عند الهنود، د. أحمد مختار عمر، ص٣٤٤.

البشرية، وبحثوا التطور الدلالي للكلمة، والدلالة الأساسية في مقابل المجازية، وأهمية السياق في إيضاح المعنى، والملاحظة الجديرة بالنظر أن البحث اللساني ارتبط في نشأته بالدين، وأن من قام به رجال الدين !

وقد تأثر الإغريق بالهنود، وصار المعنى مبحثًا فلسفيًا ومنطقيًا عند الإغريق؛ لغلبتهما في الثقافة اليونانية القديمة، وقد انعكست جهودهم العلمية واللسانية على الفكر الأوربي الوسيط والمعاصر؛ وما زالت الأفكار الفلسفية القديمة منطلق معظم النظريات الغربية الحديثة ومبعثها ومددها.

ولم يدرس اليونانيون الظاهرة اللسانية الواقعية مثلما فعل المسلمون الذين جابوا بوادي العربية البكر القحة النقية، وجعلوها مرتكزهم ومادتهم في البحث اللساني العلمي، بل انشغل اليونانيون ببعض القضايا الفكرية موضع الجدل، وأعادوا النظر في الموضوعات التي صارت من البديهيات والمسلمات؛ لذا اصطبغ الدرس اللساني عندهم بصبغة جدلية في محاورات فلسفية بين أعلام الفكر الإغريقي القديم تأثرًا بالصراع بين قطبي الثقافة (تيار الإصلاحيين والسوفسطائيين)، واهتموا باختلاف اللغات(لتعددها داخل الدولة)، وبحثوا الفروق اللهجية بين أبناء المجتمع الواحد، وقد تناول المؤرخ «هيرودوت» بعض الكلمات الأجنبية، وناقشها، وناقش أفلاطون قضية الدخيل في اليونانية، وبحث أصول بعض الكلمات الدخيلة فيها، وأشاروا إلى لغات الشعوب الأخرى بالبربرية؛ لأنها غير مفهومة، ونعتوها بالدونية تعصبًا، ومن ثم أهملوا بحثها، وأكدوا على دور اللغة في الوحدة القومية والتصدي للأخطار الخارجية، قال هيرودوت: «. . . إن المجتمع اليوناني بأكمله تربطه صلة الدم الواحد واللسان الواحد»، ودعا إلى الاهتمام باللغة اليونانية، وصنفوا مستوى اللغة إلى لغة معيارية (الفصيحة)، ولغة دارجة، وعدوا النصوص الأدبية معيار اللغة العليا، وقد اهتموا بقضايا الكتابة، وقد استعاروا الكتابة من الفينيقيين؛ لتحل محل الكتابة الإغريقية المتعثرةالتي كتبت بها اللهجة الأتيكية، والتي ضعفت بسبب الصراعات في الألف الأولى قبل الميلاد، وقد أشارت أسطورة قدموس اليونانية أنه أتى بالكتابة من وراء البحار، والمعلوم أن الفينيقيين سيطروا على البحر المتوسط، وأقاموا لهم دولة

قوية شمال إفريقية، ونشروا الكتابة الأوجاريتية التي تعلموها من جيرانهم سكان أُوجاريت (Ugarit: عاصمة مملكة أجاريت بتل رأس شمرًا باللاذقية السورية) ـ وعدد حروفها ثلاثون ـ في بعض الشعوب الساحلية، فنسبوها إليهم، وكانت المعرفة اللسانية في هذه الفترة مقتصرة على معرفة الكتابة والخط، وكلمة «جراماتيكوس» (grammatikos) تدل على العارف بالحروف واستعمالها، وتدل على مهارتي القراءة والكتابة، ثم انتقلت للدلالة على القواعد التركيبية (النحو عند العرب)، وقد تطور البحث اللغوي بفضل جهود سقراط وأفلاطون وأرسطو، بل ظلت هذه الفكرة ممتدة إلى عصر أرسطو والبلاغيون الأوائل، وأهم الآثار الباقية محاورات أفلاطون التي خصص جزءًا منها -محاورات كراتيلوس- لقضايا اللسان باعتبارها جزءًا من الأسئلة الفلسفية الوجودية، وقد ظهرت الآراء القيمة والمتنوعة في أعمال أرسطو، وتعد أساس التفكير اللساني الإنساني قديمًا وحديثًا في الغرب، وظهرت المدرسة الرواقية الفلسفية التي تزعمها زينون (في القرن الثالث ق م في أثينا)، وطرحت آراء متميزة في البلاغة والفلسفة، وكان منهجها مبنيًا على اللغة ذاتها فالدراسة الجدلية الفعالة تبدأ من الجزء الذي يبحث في الكلام، وميزت بين البنية والمعنى، وقد استفاد منها دي سوسير(ت١٩١٣م) حديثًا في تفرقته بين الدال والمدلول.

وقد ناقش اليونانيون قضية نشأة اللغة، وتأثروا بسابقيهم الهنود، فقد تبنى بعضهم الرأي الذي ذهب إلى النشأة الطبيعية، وأنها قامت على فكرة المحاكاة الصوتية، فبحثوا عن الأصل الطبيعي للكلمات التي تغيرت زمنيًا، وقد تبنى النشأة الطبيعية بعض الأبيقوريين والرواقيين، ورأى العرفيون(أصحاب مذهب المواضعة) إلى التواطؤ، وأن الإنسان صاحب كفاءة لغوية تمكنه من الوضع والإبداع، وأن اللغة تتغير في إطار المجتمع، ومن أصحاب هذا المذهب أرسطو الذي رأى أن اللغة نتاج العرف؛ لأن الأسماء لا تنشأ نشأة طبيعية، بل بالمواضعة، وظهر تيار وسط يجمع بين الرأيين، وصاحبه أبيقور (٣٤١/ ٣٧٠ ق م) الذي رأى أن صيغ الكلمات نشأت نشأة طبيعية، ثم تغيرت بالعرف، وقد رأى ابن جني(٣٩٢م) أن بعض الألفاظ محاكاة لطبيعة الصوت، وأن بعضها الآخر مواضعة، ورأى محمود عكاشة أن المواضعة لا تنفي تعلم

آدم اللغة وحيًا، ولكن مصدر تعلمه اللغة لا يجري على ذريته، وكلمة «التعلم» دليل على الاكتساب وحيًا أو تحصيلاً من معلم؛ لأن أصوات اللغة ليست غريزة جارية في كل البشر، بل القدرة على تعلمها وأدائها.

واهتم الإغريق بالإيتمولوجيا (Etymology: علم أصول الألفاظ أو الاشتقاق)، وقام بعضهم باستخراج جذور الكلمات الإغريقية وأصولها، وعالجوا الوحدات الفونولوجية كالمقطع والفونيم، ولكنهم بحثوا لغتهم فقط دون اللغات الأخرى، وتعرفوا في دراستهم الصرفية على الفروق الصوتية بين أصوات لغتهم (الألفونات)، وتناولوا العلاقات الصوتية المؤلفة أجزاء الكلام. وميز أفلاطون بين أنواع الأصوات (الصوامت في مقابل الصوائت)، وقسم الصوامت إلى الساكنة والمتحركة، ورأى أن الصوامت الساكنة لا يمكن نطقها دون صوت صائت مجاور، وبين الفروق الدلالية الناتجة عن اختلاف مواضع النبر في الكلمة الواحدة، مثل: (di/filoc)نبر المقطع الثاني يجعل الكلمة دالة على صديق الآلهة، ونبر المقطع الثاني يجعلها دالة على اسم علم، واهتم الرواقيون أيضًا بالأصوات، فبحثوا المقطع والنبر في اللغة اليونانية، وقد ساعدت هذه الجهود علماء الأصوات حديثًا في التعرف على النظام الفونولوجي للغة اليونانية القديمة، مثلما يستدل علماء القراءات واللغة المعاصرون بما كتبه الخليل وغيره في الأصوات العربية.

وقد اهتم اليونانيون في مجال القواعد ببنية اللغة المكتوبة التي اعتمدها المؤلفون الكلاسيكيون في العصر الأتيكي قديمًا، وجعلوها معيارهم في القواعد مثلما اعتمد المسلمون لغة القرآن الكريم والعرب الأقحاح، وتعد جهودهم الصرفية التي تأخرت نحو قرنين عن دراسة الأصوات أساس البحث الغربي الحديث، وقد رأوا أن الكلمة وحدة الجملة، وقد جعلها بروتاجوراس (٧٥ ق م) كالاسم، وعدها جنسًا في اللغة اليونانية، وقسمها حسب اختلاف أشكالها التركيبية: الاستفهام والتعجب والتقرير والأمر.

وقد اهتموا بتركيب الجملة، فقد قسمها أفلاطون إلى مكونيها الرئيسين: الاسم والفعل، وأضاف أرسطو نوعًا ثالثًا في تقسيمه: الاسم (Onama) و الفعل (Rhema) والرابطة (Syndesmoi) التي عرفت لاحقًا بالرابط والأداة والضمير، وهذا تقسيم

منطقي يتعلق بالقضية المنطقية(العبارة)، وقد تطور هذا التقسيم إلى فروع في الدرس اليوناني، وهنالك تقسيم شبيه به في عند سيبويه: الاسم والفعل والحرف، وقد ربط بعض الباحثين بينه وبين القواعد اليونانية السالفة، والراجح أن هذا التقسيم جارٍ في اللغات؛ لأنه يشكل بنيتها الرئيسة، والاسم والفعل والرابطة (الحرف) في النحو العربي لهم مفاهيم مختلفة ووظائف نحوية مختلفة عما في القواعد اليونانية.

وقد جعل اليونانيون هذا التقسيم المنطقي للعبارة (أو القضية المنطقية) أساس تحليل الجملة إلى عناصرها الأساسية أي الكلمات، ويعد الرواقيون أول من وضح النظام الأرسطي في تصنيف الكلمات والفئات النحوية التي وضعها أرسطو، فقد وسعوا البحث في الاسم والفعل، وطوروا البحث في القواعد، وهم أصحاب مصطلح «الحالة النحوية» (أو الإعرابية) بمدلوله الحديث الذي يمثل الأوضاع الصرفية للكلمات في الجملة أو التغير القواعدي لصيغة الكلمة، وقد عرف بنظرية الأدوار الدلالية التي تبناها تشالز فيلمور وزملاؤه، وقد ناقش اليونانيون العلاقة بين الدلالة الزمنية للفعل والحدث التام (المنقطع في زمن الماضي) والمستمر (الناقص) والمتوقع (المستقبل)، وقد ظل هذا التقسيم الزمني قائمًا في اللغات الأوربية الحديثة، وقد تناول المسلمون الدلالة الزمنية ودلالة الحدث، وأحكموا البحث فيها، وقد بلغ علماء الأصول في هذا مبلغًا لا يبارى عالميًا.

وقد تناول اليونانيون قضية الإخبار في الجملة، وناقشوا الصدق والكذب من منطلق صوري يقوم على المقدمات والمسلمات[1]، وتناولوا خصائص عناصرها التركيبية على النحو الآتي:

ا - الجنس (مذكر/ مؤنث / محايد). ب ـ النوع اللفظي (أصلي / مشتق).

ج- الصيغة (بسيطة / مركبة). د ـ العدد (مفرد / مثنى/ جمع).

هـ- الحالة (الرفع/ النداء أو المفعولية / الإضافة أو المفعولية غير المباشرة).

وقد عالج ديونيسوس الزمن الفعلي ودلالته في الأزمنة (الماضي، الحاضر، المستقبل)، وقسم الماضي أربعة أنواع: (الناقص، التام البعيد، التام القريب، الماضي البسيط)، واستمر

(١) لقد تناولت هذا في كتابي تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة في تحليل خطاب امرأة عمران.

هذا التقسيم في قواعد اللغة اللاتينية، فقد استخدمه برسيان وأبولونيوسديسكولس صاحب النظرة العقلية في وصف اللغة، فقد ميّز بين الصيغة الصرفية والمعنى، وعد المضمون مهمًا في التصنيف القواعدي دون الاكتفاء بالصيغة الصرفية، وكانت أعمال هذه الحقبة مرجع الدراسات اللسانيات الغربية الأولى في العصر الحديث، ويعد نظام الحالة في اليونانية وطرق تحليل الدلالات الحالية الذي أبدع فيه البيزنطي مكسيموس بلاتيوس نواة نظرية الحالة الإعرابية عند المحدثين، وقد أفاد مكسيموس في دراسته الحالة من فكرة الموقعية، وقد أشاد به هيلسليف اللساني الدانماركي.

وقد واصل الرومان البحث اللساني بعد أن هيمنوا على ممتلكات الدولة الإغريقية(البطالمة) (٢٧ ق م)، ولكنهم لم يبلغوا مبلغهم، واكتفوا بالشروح، ولكن البحث اللساني في الدولة البيزنطية كان محدودًا، ولم يقدم شيئًا جديدًا بعد انتقال السيادة إلى عاصمة الأمبراطورية الرومانية الشرقية(القسطنطينية)(٣٩٥ - ١٤٥٣م) مكتفيًا بالتراث اليوناني السابق وبعض ما قدمه الرومان، وقد دخلت أوربا في مرحلة العصور الوسطى (Dark Ages 400 - 1400م)، وقد توقف البحث العلمي.

وقد عاد البحث اللساني في عصر النهضة(١٤٠٠ : ١٦٠٠م)، وقد استلهم الغرب نهضته من المسلمين بالأندلس ومن التراث الإغريقي الذي عد رافدًا أساسًا في البحث الأوربي الحديث، قال روبنز: «إن المعرفة اللغوية كانت نتاجًا فعليًا للعصور الماضية»، ولقد كان عصر النهضة زمن المعاجم ومسارد المفردات الصعبة والشروح ودراسة إبداعات الماضي، وليس عصر إبداع جديد، فقد مثل مرحلة الإحياء التراثي في اللسان لما قدمته الحضارات القديمة الهندية و الإغريقية والرومانية، وقد قامت الدراسات الأولى (بين١٦٠٠ : ١٨٠٠) على الدراسات اليونانية عند أرسطو وأفلاطون وسقراط وغيرهم، والشروح وقواعد اليونانية القديمة واللاتينية ودراسات اللغة السنسكريتية القديمة والنحو المنطقي، وقد تأثر الباحثون بالدراسات اليونانية القديمة في وصف اللغة اللاتينية، وقد ظهرت اللهجات المحلية التي تنامت مع انهيار الممالك في أوربا، وصعود نَعْرة القوميات التي صارت لهجاتها المحلية إلى لغات أوربا الحديثة.

وقد صارت أعمال الأعلام الذين عاشوا في هذه الفترة نواة اللسانيات الحديثة، مثل نظام «الحالة» في اليونانية وطرق تحليل الدلالات الذي أبدع فيه البيزنطي مكسيموس

بلاتيوس، وقد أفاد في دراسته الحالة من فكرة الموقعية، وقد أشاد به هيلسليف الدانماركي، وقد ظهرت مناهج علمية حديثة أفادت في بحث اللغات القديمة، وأثرت الفلسفة والعلوم التجريبية في البحث اللساني الغربي، وأدخلته في قضايا جدلية[1].

ويتبين أن البحث اللساني الأول نشأ لأهداف دينية، أهمها تدوين «الكتاب المقدس» وشرحه، ومن ثم ارتبطت نشأة الكتابة بالمعابد ورجال الدين (الكهنة) ثم عم استعمالها في المصالح العامة، ويعد المصريون الأوائل أصحاب الفضل في ابتكار رموز كتابية على شكل صور أو أشكال طبيعية، ثم تطورت إلى رسم مجرد من ارتباطه بالطبيعة؛ ولكن تسميات الرمز ظلت في بعض الحروف، وجرى تطوير لهذا الرمز حتى اختصر في عدد محدود، وكان هذا التطوير مواكبًا تطور البحث اللساني، ولكن أبرز مراحل البحث اللساني تلك التي قام بها المسلمون، ويرجع هذا إلى ارتباطه بالقرآن الكريم ـ وهو خطاب محكم لا مثيل له في ألسن العالم ـ ثم قيامه على اللغة العربية ذات البنية الفريدة المميزة والإعراب التعبيري الذي انفردت به في اللغات الحديثة، والتراكيب المتنوعة التي اتسعت للأساليب الأثيرة ووجوه التعبير، والدلالة الغداقة ذات الدقة التعبيرية والبلاغة والتأثير.

وقد بدأ البحث العربي بنزول القرآن الكريم ببحث معاني القرآن الكريم، ثم تطور تطوراً سريعًا واتسع مواكبًا التفوق العسكري للجيوش الإسلامية واتساع رقعة الخلافة الإسلامية ونموها الاقتصادي السريع، وقد توسع البحث اللغوي، وتعددت فروعه، وواكبة نهضة أدبية، وثقافية شاملة، وقد بلغ البحث اللساني عند العرب مبلغًا لم يبلغه عند الأمم الأخرى، وقد تناول هذا الأفاضل في حديثهم عن تاريخ اللغة العربية والبحث فيها[2]، وسوف أتناول مستوياته الرئيسة لاحقًا.

(١) لقد أفردت كتابًا مستقلاً لدراسة علم اللسان الحديث غربيًا وعربيًا، تناولت فيه الجهود الحديثة والمدارس اللسانية وقضايا العربية المعاصرة.

(٢) تناول هذا الدكتور أحمد مختار عمر في «البحث اللغوي عند العرب»، وتمام حسان في «مناهج البحث في اللغة»، وعبد السلام المسدي في «التفكير اللساني في الحضارة العربية»، والمهيري: نظرات في التراث اللغوي عند العرب، وبواز وجيوم في «التراث اللغوي العربي» (ترجمة محمد حسن عبد العزيز وكمال شاهين)، وغيرهم ممن كتبوا في مصادر اللغة والأدب.